دور الجغرافية في غزوات الرسول (ﷺ)

بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي الدولي

الذي تقيمه كلية الآداب – جامعة الكوفة

عن شخصية الرسول الأكرم (ﷺ)

للمدة من 12 لغاية 17 ربيع الأول 1432هـ

الموافق للأيام من 2/17 لغاية 2011/2/33م

الأستاذ الدكتور

جاسم ياسين الدرويش

عسكرياً لم تكن الجغرافية هي الهدف في أغلب الحروب ، بل هي الوسيلة التي يمكن من خلالها بلوغ الهدف ، ولما كانت الأرض (المكان) هي الحاضنة التي تقوم عليها أعمال الإنسان ، لذا فهي تشكل عاملا مهما في توجيه فعالياته ، ومن هنا يرتبط التاريخ بالجغرافية بشكل وثيق ، إذ إن التاريخ هو نشاط الإنسان في زمان ومكان معين ، وبالتالي فان الجغرافية تشكل واحداً من ثلاثة عناصر لكل حدث (وهو الإنسان ، الزمان ، المكان) .

وعليه فأنه من الصعب فهم الكثير من الأحداث بدون التعرف على المكان الذي وقع عليه الحدث وتأثيراته فيه ، ومن هنا جاءت فكرة البحث (دور الجغرافية في غزوات الرسول (ﷺ) ، والذي سوف نركز فيه على محاولات الرسول (ﷺ) دراسة الأرض واستكشافها وتوظيفها لصالحه قبل الدخول في أي معركة ، فضلا عن انه (ﷺ) كان يحقق أهدافا عدة عند اختياره المكان أو الطريق المناسب .

ولد النبي (ﷺ) ونشأ في مكة ، وكان الطابع التجاري هو الغالب على المجتمع المكي ، إذ كانت لمكة علاقات تجارية مع مناطق مهمة من بلدان العالم القديم ، فقد كانت لها صلات تجارية مع اليمن والحبشة والشام والحيرة ومصر ، وقد أشار القرآن الكريم صراحة إلى رحلات المكيين قال تعالى :

(لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4))

كما أن النبي (ﷺ) قبل البعثة كانت له عدة رحلات إلى الشام (1) ، وقد أسهمت تلك الرحلات في اتساع معارفه الجغرافية ، أما بمشاهدتها بنفسه أثناء رحلاته ، أو بإكتساب تلك المعارف من مجتمعه .

وبعد مبعثه(ﷺ) عمل على الاستفادة من معارفه الجغرافية لخدمة دعوته ، ففي السنوات الأولى من الدعوة عندما ازداد اضطهاد المشركين لأتباعه وخشى عليهم الفتنة أمرهم بالهجرة إلى الحبشة (2) ، والحبشة تبعد مئات الكيلومترات عن مكة والسفر إليها يتطلب ركوب البحر ، فمن غير المعقول أن يغرر الرسول (ﷺ) بأصحابه ويدفعهم للسفر إلى مكان مجهول لديه ، ومما يدل على معرفته بها هو انه قال لأصحابه (لو تفرقتم في الأرض حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما انتم فيه ، فقالوا : والى أين نذهب يا رسول الله ، فقال لهم : إلى ها هنا ، فإذا بيده الشريفة إلى هذه البلاد) (3) ، كما أن هجرته إلى الطائف التي تبعد ستون ميلا عن مكة (4) وعدم اصطحابه لدليل معه أثناء سفره (5) يؤكد أنه كان عارفا بالطريق ، ثم تأتي هجرته إلى المدينة عندما سلك غير الطريق الاعتيادي الذي كانت تسلكه القوافل (6) وهو في هذه المرة اصطحب معه دليل ، ربما لعد معرفته التامة بتفاصيل ذلك الطريق .

وفي المدينة بدأت صفحة جديدة إذ أصبح للإسلام دولة ، وقد استفاد الرسول (ﷺ) من موقع دولته الجديدة التي تبعد عن مكة حوالي 245ميلا (7) للتعرض لقوافل قريش التجارية ، ولما كانت التجارة عصب حياة المتنفذين من مشركي قريش ، لذا كانت الهجرة إلى المدينة الضربة المميتة الأولى التي كانت الجغرافية ساعدها الأيمن المسلطة على أعداء الرسول (ﷺ) في مكة ، وقد أدرك المشركون ذلك تماما إذ قال صفوان بن أمية (إن محمدا وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا ، فما ندري كيف نصنع بأصحابه ، لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فمال ندري أين نسلك ، وان أقمنا نأكل رؤوس أموالنا) (8) ، وفي محاولة من مشركي مكة لفك الحصار حاولوا سلوك طريق نجد وذلك لتحاشي الاصطدام بقوات المسلمين التي تجوب طريق الساحل ، ولكن النبي (ﷺ) كان على معرفة بمسالك الطرق المؤدية إلى مكة فأحبط محاولتهم (9) .

كان عدد سرايا وغزوات الرسول (ﷺ) قبل بدر ثمان قاد هو (ﷺ) بنفسه منها أربع فيما اسند الباقي منها إلى أصحابه (10)، وعند تتبع الأماكن التي استهدفتها قوات المسلمين ندرك مدى الإحاطة الكاملة بالأهمية الجغرافية لتلك الأماكن ومعرفة الرسول (ﷺ) بمسالكها ، فأول غزوة قادها بنفسه كانت غزوة ودان أو الأبواء (11) وهي تقع في منتصف الطريق بين مكة والمدينة (12) ، وكانت له فيها ذكريات إذ توفيت فيها أمه عندما قدمت من المدينة بعد زيارة أخواله من بني النجار وهو ابن ست سنوات (13) ، وعلى الرغم من أن بين ودان والأبواء ستة أميال (14) إلا أنه يبدو أن الغزوة شملت المنطقة كلها حيث طريق القوافل التجارية ولإشعار أعدائه أن جميع الطرق تحت مراقبته ، ولأهمية المنطقة عمل الرسول (ﷺ) على محالفة القبائل التي تقطنها وأشهرهم بنو ضمرة (15) .

أما الغزوة الثانية فكانت غزوة بواط ، وهو جبل بناحية المدينة بينه وبينها ثلاثة أبرد (16) أي حوالي 72كم غرب المدينة المنورة ، وتأتي أهمية هذه المنطقة للمدينة كونها قريبة منها وتمر بها القوافل التجارية (17) .

ثم غزوة سعد العشيرة والتي تبعد عن المدينة تسعة أبرد (18)أي حوالي 216 كم ، وكانت الطريق التي سلكها مناورة منه رائعة تدل على معرفة بجغرافية المنطقة ، إذ سلك (ﷺ) في خروجه من المدينة الطريق الساحلي على بيوت السقيا ولكنه ما لبث أن تحول شرقا مخترقا سلسلة جبال الحجاز نحو البادية وعسكر في منطقة العشيرة (19) لمراقبة قافلة تجارية لقريش كانت متجهة إلى الشام (20) .

وفي غزوة بدر الأولى على الرغم من أن عدوه كرز بن جابر الفهري (21) أغار على المدينة من ناحية الجمّاء التي تبعد عنها ثلاثة أميال (22) أي حوالي 6 كم إلا أنه (ﷺ)طارده حتى مياه بدر(23) التي تبعد عن المدينة سبعة أبرد (24) أي حوالي 158 كم (25) وذلك ليلقنه درسا بأن المنطقة المحيطة بالمدينة كلها تحت إشرافه وحمايته .

يتبين مما مرّ أعلاه أن الرسول (ﷺ) قد سبر جغرافية المنطقة بين مكة والمدينة وأخضعها لمراقبته ، كما إن سلوكه للطرق غير الاعتيادية في تحركاته تعكس مدى معرفته الجغرافية وتسخيرها لتحقيق أهدافه .

وفي معركة بدر الكبرى سنة 2هـ حرص النبي (ﷺ) على استكشاف جغرافية المنطقة قبل اتخاذ معسكره بها فضلا عن معرفة أخبار عدوه ، فقبل أن يخرج من المدينة أرسل طلحة بن عبيد الله (26) وسعيد بن زيد (27) يجمعان له الأخبار (28) ، وبعد مغادرته المدينة سلك طريق الصفراء بإتجاه وادي بدر (29) ، ومنها أرسل بسبس بن عمرو (30) وعدي بن أبي الزغباء (31) يتحسسان له الأخبار ويجمعان المعلومات عن المنطقة المحيطة ببدر (32) ، ثم

لم يكتف بذلك فلما وصل قريبا من بدر خرج هو (ﷺ) وأبو بكر الصديق(رض) لاستكشاف الأرض وجمع المعلومات (33) ، وبعد رجوعه إلى معسكره أرسل دورية استطلاعية تتكون من علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص (رضي الله عنهم) (34) ، وعليه فإن النبي (ﷺ) قد أعطى أهمية كبيرة للتعرف على جغرافية المنطقة التي كان ينوي إنزال عسكره فيها وقد بلغت دورياته أربعا كان هو على رأس إحداها .

ثم تأتي مهمة اختيار الموقع النهائي ، فقد كان هدف الطرفين النزول عند ماء بدر ، وحاول كل طرف أن يسبق الآخر إليه ليستفيد منه دون خصمه ، وهكذا بدأ سباق حرب المياه ، وقد استطاع النبي (ﷺ) بعد أن جمع معلومات تفصيلية عن المكان من دورياته الاستطلاعية أن يسبق خصمه إلى مياه بدر فنزل عندها جاعلا المياه أمامه (35) ، وقد عرف عنه (ﷺ) انه كان أكثر مشورة لأصحابه ، فقال لهم : (أشيروا عليّ في المنزل ، فقال الحُباب بن المنذر (36) : يا رسول الله : أرأيت هذا المنزل ، أمنزل أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، قال فإن هذا ليس بمنزل ، انطلق بنا إلى أدنى القوم ، فإني عالم بها وبقلبها ، بها قليب قد عرفت عذوبة مائه ، وماء كثير لا ينزح ، ثم نبني عليها حوضا ونقذف فيه الآنية ، فنشرب ونقاتل ، ونغوّر ما سواها من القُلب) (37) .

ومن الناحية الجغرافية فإن لهذا النص من الأهمية بمكان ، فإنها أول معركة في الإسلام يستخدم فيها المياه ، وكان لذلك اثر في نتائج المعركة ، إذ أن بعض المشركين وصلوا عُطاشى وفشلت محاولاتهم الوصول إليه ، وهو ما ساهم مع عوامل أخرى في نصر المسلمين (38) ، كما أن النبي (ﷺ) عسكر في العدوة الشامية وهو ما فرض على أعدائه النزول في العدوة اليمانية ، وبذلك فقد جعل وجهه نحو القبلة ، ثم صفّ أصحابه في ساحة المعركة قبل نزول

أعدائه إليها (فاستقبل المغرب ، وجعل الشمس خلفه ، وأقبل المشركون فاستقبلوا الشمس) (39) ، وهو ما أسهم في إعاقة حركتهم في المعركة ، ومن هنا نرى أن النبي (ﷺ) لم يدخر وسعا في استغلال كل ما هيئته الطبيعة من مياه وأرض وطقس وتوظيفه لصالحه .

ثم واصل النبي(ﷺ) بعد معركة بدر تطبيق سياسته في محاصرة أعدائه مشركي قريش اقتصاديا مستفيدا من موقع المدينة الجغرافي المهيمن على خطوط تجارة مكة مع الشام والعراق ، وعلى هذا كانت غزوة بني سليم في شوال من السنة الثانية للهجرة ، وغزوة ذي امر في محرم من السنة الثالثة للهجرة وغزوة بحران في ربيع الأول من نفس السنة (40) وهكذا نجح النبي (ﷺ) في إحكام الحصار على مشركي مكة وهو ما دفعهم إلى خوض غمار معركة أحُد .

كان لإنقسام رأي المسلمين في أحُد (41) أثر في سبق المشركين بالوصول إلى ارض المعركة واختيار الموقع الأفضل جغرافيا ، إذ نزلوا عند أحد السفوح من جبل أحُد على خمسة أميال من المدينة وأرسلوا إبلهم وخيلهم ترعى في مزارع الأنصار حول المدينة (42) .

أما النبي (ﷺ) فبعد أن اتخذ قرار الخروج لملاقات المشركين أرسل عدد من دوريات الاستطلاع لدراسة ارض المعركة واختيار الموقع المناسب ، فأرسل أنسا ومؤنسا ابني فضالة (43) فسارا مع قريش ثم رجعا فأخبرا رسول الله (ﷺ) أنهم نزلوا الوطاء من أحُد (44) ، ثم أرسل الحُباب بن المنذر سرا وقال له لا تخبرني بين احد من المسلمين ، فذهب ودخل فيهم وحرز ونظر إلى ما يريد (45) ، وبذلك توضحت لديه صورة المكان الذي نزله المشركون ، عندها أخذ يتدارس مع أصحابه خيارين لاختيار ارض المعركة ، وهما إما أن يخرج إليهم فيكون عدوه قد اختار الموقع الجغرافي الأفضل ، وأما أن يبقى في المدينة يتحصن بها إذ كانت الطبيعة الجغرافية لها تساعد على ذلك ، وهو ما أشار به عبد الله بن أبي رأس المنافقين (46) قائلا (يا رسول الله ، كنّا نقاتل في الجاهلية فيها ، ونجعل النساء والذراري في الصياصي (47)

، ونجعل معهم الحجارة ، والله لربما مكث الولدان شهرا ينقلون الحجارة إعدادا لعدونا ، ونُشبّك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية) (48) .

ولكن يبدو أن الرسول (ﷺ) لم يكن يطمئن إلى سلامة موقف عبد الله بن أبي على الرغم من انه كان يميل إلى رأيه (49) ، ولهذا قرر الخروج ، عندها لم يعدم (ﷺ) من اتخاذ الخطط الكفيلة بتسخير الجغرافية لتحقيق هدفه ، فأعطى ظهر عسكره لجبل أحُد واستقبل المدينة ، أما المشركون فقد استدبروا المدينة واستقبلوا أحُد ، وهو ما جعل الجناح الأيسر لجيش المسلمين مكشوفا ، فوضع النبي(ﷺ) على جبل قريب منه قليل الارتفاع يدعى عينين عدد من الرماة وأوصاهم قائلا (انضح الخيل عنا لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا) (50) ، وبذلك احكم النبي (ﷺ) خطته وقد أدرك أن الثغرة الطبيعية التي يمكن التسلل منها إلى عسكره هو جانبه الأيسر ، ولهذا اخذ عهدا على الرماة أن لا يفارقوا مكانهم قائلا (اللهم إني أشهدك عليهم) (51) ، وكما فعل في بدر فقد استدبر الشمس فيما استقبلها المشركون (52) .

وهكذا انهزم المشركون في الجولة الأولى من المعركة بفضل حصانة موقع جيش المسلمين ، إذ جبل أحُد من خلفهم والرماة عن يسارهم وهم مستقبلون عدوهم ، ولكن تخلي الرماة عن أماكنهم في تلك اللحظات جعل ميسرة الجيش هدفا سهلا ممكن التسلل إليه وهو ما حدث فعلا ، إذ استغل المشركون انشغال المسلمين بالغنائم فتسللوا عبر جبل عينين بعد نزول أغلب الرماة منه ، وأحاطوا بالمسلمين وأوقعوا بالعديد منهم ، عندها أمر الرسول (ﷺ) أصحابه بالانسحاب نحو سفح الجبل للاحتماء به ، وهي حركة رائعة إذ لو بقي المسلمون في الوادي لتعرضوا للفناء ، وقد أدرك الرسول(ﷺ) ذلك ، وعندما أحسّ المشركون بتوجه المسلمين إلى الجبل للحصول على موقع أفضل ، أسرعوا بإرسال فرقة منهم إلى السفح لتعلو جيش المسلمين ، عندها سارع الرسول (ﷺ) بإرسال عمر بن الخطاب(رض) مع مجموعة من المقاتلين وتمكنوا

من ردهم (53) ، وبذلك تحسن وضع المسلمين في القتال بعد اعتلائهم سفح الجبل وآيس المشركون من النيل منهم واكتفوا بما حققوه وفضلوا الانسحاب (54) ، وفي ذلك يقول محمود شيت خطاب أن الرسول (ﷺ) استطاع (بهذا الموقف الحرج للغاية بالنسبة للمسلمين الموفق للغاية بالنسبة للمشركين ، أن يسيطر على أعصابه في معركة يائسة جدا ، ويقود الباقين من المسلمين لشق طريقهم من بين القوات المتفوقة المحيطة بهم ، ثم يحتل موضعا مشرفا ، ويقوم بإعادة تنظيم قواته ويعيد لها معنوياتها ، ويصدّ بها هجمات مقابلة شديدة للمشركين ، فيحيل الهزيمة الأكيدة الماحقة إلى نصر) (55) ، وبذلك استطاع الرسول (ﷺ) بفضل الاستغلال الأمثل للجغرافية أن يجعل النصر للمغلوب .

وفي معركة الخندق سنة 5هـ كان للجغرافية إسهامها الفاعل في إنجاح خطة المسلمين الدفاعية عن المدينة ، فقد كان معظم جهات المدينة محاطة بحواجز طبيعية أو بساتين يصعب اختراقها بقوات كبيرة ، إذ أن المناطق الجنوبية الغربية كانت تكثر فيها الوديان والمزارع ومن ورائها وادي العقيق مشكلة خطا دفاعيا ، كما إن الجهات الشمالية الشرقية يحيط بها جبل أحُد وهي صخور وعرة ، ولم يكن للمدينة سوى منفذ واسع واحد وهو المناطق الشمالية الغربية التي بإمكان الأعداء اختراقها (56) ، والمدينة فيما عدا هذه الجهة كالحصن كما يقول ابن سعد (57) ، لذا قرر الرسول (ﷺ) وبمشورة سلمان الفارسي (58) أن يحفر خندق بين حرة المدينة وجبل سلع وبمسافة عشرة آلاف ذراع (أي 5 كم) تم حفرها في ستة أيام (59) ، ثم عسكر بقواته وراء الخندق وأسند ظهره إلى جبل سلع (60) .

ومن الناحية الجغرافية فقد هيأ الخندق للمسلمين موقعا حصينا يمكن الدفاع عن أنفسهم بسهولة اكبر ، فيما ترك عدوهم في منطقة مكشوفة وأرض جرداء خالية من الزرع ، وكان الوقت شتاءً فكانوا عرضة للرياح الباردة العاصفة ، إذ أشار الواقدي إلى إنهم (قدموا المدينة في زمان

ليس في العرض زرع ، فقد حصد الناس قبل ذلك بشهر ، فأدخلوا حصادهم واتبانهم ... وكادت إبلهم تهلك من الهزال ، وكانت المدينة ليلة قدموا جديبة) (61) ، لذا فأن المشركين أخطئوا في اختيار التوقيت المناسب لهجومهم ، كما فشلت كل محاولاتهم اقتحام الخندق ما جعلهم في موقف حرج ، وقد عبّر أبو سفيان عن ذلك قائلا (إنكم والله لستم بدار مقام ، لقد هلك الخُف والكُراع ، واجدب الجَناب ... وقد لقينا من الريح ما ترون ! والله لا يثبت لنا بناء ولا تطمئن لنا قدر ، فارتحلوا فإني مرتحل) (62) ، وبذلك فقد أسهمت الجغرافية بشكل فاعل في إضعاف معنويات المشركين ثم انهزامهم ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) (63) .

كان فشل المشركين في غزوة الأحزاب أن تحول مركز المسلمين من حالة دفاع إلى الهجوم ، وقد عبّر الرسول (ﷺ) عن ذلك بقوله (لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكن تغزونهم) (64) ، لذلك عمل (ﷺ) على إحكام الحصار الاقتصادي على مشركي مكة عن طريق إرسال العديد من الحملات العسكرية اغلبها موجها إلى المناطق الشمالية بين المدينة والشام لتأديب القبائل التي شاركت ضده في الخندق والعمل على موادعتها وكسبها إلى الإسلام ثم التمهيد لإستئناف تجارة المسلمين من المدينة إلى الشام ، لذلك فقد نفذ المسلمون ثمان عشرة ما بين سرية وغزوة في المدة بين غزوة الخندق في ذي القعدة 5هـ وصلح الحديبية في ذي القعدة سنة 6هـ (65) ، وهو ما جعل الطريق مفتوحا بينهم وبين خيبر التي كانت تنتظر العقاب أيضا بسبب موقفهم في الأحزاب .

وبالفعل ما أن ضمن الرسول (ﷺ) حياد مشركي قريش بعد صلح الحديبية حتى زحف بقواته تجاه خيبر التي تبعد عن المدينة مائة ميل شمالا ، وكان يهود خيبر قد استغلوا الطبيعة

الجغرافية هناك فبنوا الحصون والقلاع على الجبال فكانت غاية الإحكام حتى كان يهود المدينة يقولون للمسلمين (ما أمنع والله خيبر منكم ! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم ، حصون شامخات في ذُرى الجبال) (66) ، ولذلك حاول الرسول (ﷺ) أن يقطع الطريق إليهم بسرعة على الرغم من بُعد المسافة من أجل مباغتتهم واستأجر دليلين وقال لأحدهما (امض أمامنا حتى نأخذ صدور الأودية ، حتى نأتي خيبر من بينها وبين الشام ، فأحول بينهم وبين الشام وبين حلفائهم من غطفان) (67) ، فلما انتهى به الدليل إلى موضع له عدة طرق تنفذ إلى خيبر قال له (ﷺ) سمها لي فسمّاها وهي : حزن وشاش وحاطب ومرحب ، وكان النبي(ﷺ) يتفاءل بالاسم الحسن فأمر الدليل بسلوك طريق مرحب (68) ، ثم ضرب عسكره بالقرب من أحد حصونهم ، فأشار عليه الحُباب بن المنذر أن منزله هذا يجعله هدفا لنبال القوم قائلا (يا رسول الله دنوت من الحصن ونزلت بين ظهري النخل والنّزّ ، مع إن أهل النطاة لي بهم معرفة ، ليس قوم أبعد مدى منهم ، ولا أعدل منهم ، وهم مرتفعون علينا وهو أسرع لانحطاط نبلهم ، مع أني لا آمن من بياتهم يدخلون في خمر النخل ، تحَوّل يا رسول الله إلى موضع برىء من النّزّ ومن الوباء ، نجعل الحرة بيننا وبينهم حتى لا ينالنا نبلهم (69) .

ومن هنا يتضح أن المنطقة التي نزلها المسلمون غير صالحة للقتال قريبة من الماء والنخل وربما فيها بعض المستنقعات وهو ما قد ينعكس سلبا على موقفهم (70) ، وقد أخذ الرسول (ﷺ) برأي الحُباب وعمل إلى التحول عنه إلى مكان أفضل (71) واستطاع منه أن يحقق أهدافه وهزيمة أعدائه .

كان انتصار النبي(ﷺ) في خيبر أن كسر الحاجز الذي كانت العرب تخشاه من اليهود ، والذي يرجع إلى بُعد المسافة بين خيبر والمدينة ، ثم حصانة موقع خيبر الطبيعي وقوة قلاعها

وحصونها وكثرة رجالها ، وبذلك استطاع بكل قوة وعزم من كسر ذلك الحاجز الطبيعي والنفسي الذي تتمتع به .

كان الهدف الرئيسي للرسول(ﷺ) بعد خيبر هو مكة قاعدة الوثنية في شبه جزيرة العرب ، ولما كان قد دخل مع المشركين في هدنة ، لذا عمل على تطويق مكة وعزلها عن طريق شن الغارات على مناطق متعددة من الحجاز من اجل كسب القبائل إلى الإسلام والتحالف معها ، ونظرة في التوزيع الجغرافي للأماكن التي استهدفتها سراياه يتبين مدى استيعابه (ﷺ) لجغرافية الحجاز ومسالكها وخاصة ذات التأثير على مكة ، فقد بلغت سراياه بين شعبان من سنة 7 هـ حتى رمضان من سنة 8 هـ ثلاثة عشر سرية (72) موزعة على منطقة جغرافية واسعة تمتد من تربة (73) جنوب مكة حتى مؤتة شمالا (74) وبادية نجد شرقا حتى ساحل البحر الأحمر غربا ، وبالتالي يمكن القول أن الرسول (ﷺ) خلال سنة واحدة استطاع من الناحية الجغرافية أن يحيط بمكة من جميع جوانبها ، وهو ما كان له آثاره الايجابية على الدعوة الإسلامية داخل مكة نفسها ، إذ أدرك العديد من رجالها البارزين ضرورة التخلي عن معارضة الرسول(ﷺ) بعد ابن أصبح يمثل أكبر قوة في شبه جزيرة العرب ، فكان إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة (75) وأصبح أمر دخوله مكة مسألة وقت .

ثم جاءت الفرصة المناسبة لفتح مكة بعد أن نقض المشركون اتفاق صلح الحديبية (76) فسار إليها وكان هدفه أن يدخلها بأقل ما يمكن من الخسائر وذلك عن طريق مفاجئة المشركين وإجبارهم على الاستسلام ، وجغرافيا فإن طبيعة أرض مكة ومداخلها تخدم هذا الهدف ، فقد قسم النبي (ﷺ) قواته إلى أربعة أقسام ميسرة الجيش بقيادة الزبير بن العوام وواجبها دخول من الشمال من منطقة كُدى ، والميمنة بقيادة خالد بن الوليد واجبها دخول مكة من الجنوب من منطقة الليط ، وقوات الأنصار بقيادة سعد بن عبادة ثم ابنه قيس واجبها دخول مكة من الغرب

من منطقة كداء ، ثم قوات المهاجرين بقيادة النبي (ﷺ) وبين يدية أبو عبيدة عامر بن الجراح واجبها دخول مكة من الشمال الغربي من منطقة أذاخر ، وتكون نقطة تجمع القوات داخل مكة عند جبل هند (77) .

إن دخول مكة من أربعة جهات كان مفاجئة لمشركي قريش وأقنعهم أن لا جدوى من المقاومة وقد أحاطت بهم قوات المسلمين من كل جانب ، وهكذا لعبت الجغرافية دورها في خدمة أهداف المسلمين إثناء فتح مكة .

وفي معركة حُنين كان اتخاذ المشركين من هوازن مواقعهم قبل المسلمين أثر في سير المعركة أول الأمر ، إذ إن قائدهم مالك بن عوف النصري (78) قام (بتوزيع قواته بطريقة تساعدها على الاستفادة من مضايق وشعاب وادي حُنين) (79) فلما مرّ المسلمون خلال الوادي وكان شديد الانحدار ، فلم يشعروا إلا بهجوم المشركين عليهم من مضايق وشعاب وضفاف الوادي مما أوقع الرعب والفزع في صفوفهم فانهزم عامتهم لولا ثبات مجموعة من المسلمين مع النبي(ﷺ) مما حول الهزيمة إلى نصر (80)

بعد فتح مكة لم في شبه جزيرة العرب من قوة بإمكانها تحدي قوة المسلمين ، عندها أراد النبي (ﷺ) أن يكسر حاجز الخوف الذي كان في نفوس الناس من الإمبراطورية البيزنطية ، خاصة وانه كان هناك الكثير من المستوطنات والقرى شمال الحجاز وعلى تخوم الشام الجنوبية قلقة من تنامي قوة المسلمين وهي في الوقت نفسه تهاب الروم وتخشى بطشهم ، ومن هنا جاءت غزوة تبوك في رجب من سنة 9 هـ وهي آخر غزوة غزاها الرسول (ﷺ) بنفسه ، وتبوك تبعد اثنا عشر مرحلة من المدينة (81) ، وعلى الرغم من أن المسلمين لم يخوضوا قتالا فعليا مع عدوهم إلا إن هذه الغزوة جاءت بنتائج ايجابية من حيث الرقعة الجغرافية للإسلام ، إذ أوقعت الرعب في نفوس سكان المراكز الواقعة على تخوم الشام مثل دومة الجندل وإيلة وتيماء وجرباء ،

فأرسلوا وفودهم إلى الرسول (ﷺ) طالبين الصلح (82) ، كما أن هذه الغزوة فتحت الباب على مصراعيه لكل الوفود من مختلف مناطق شبه الجزيرة العربية حتى إن ذلك العام سمي بعام الوفود (83) ، فضلاً عن أن النبي (ﷺ) من خلال حركته إلى تبوك مهد الطريق إمام المسلمين لفتح الشام .

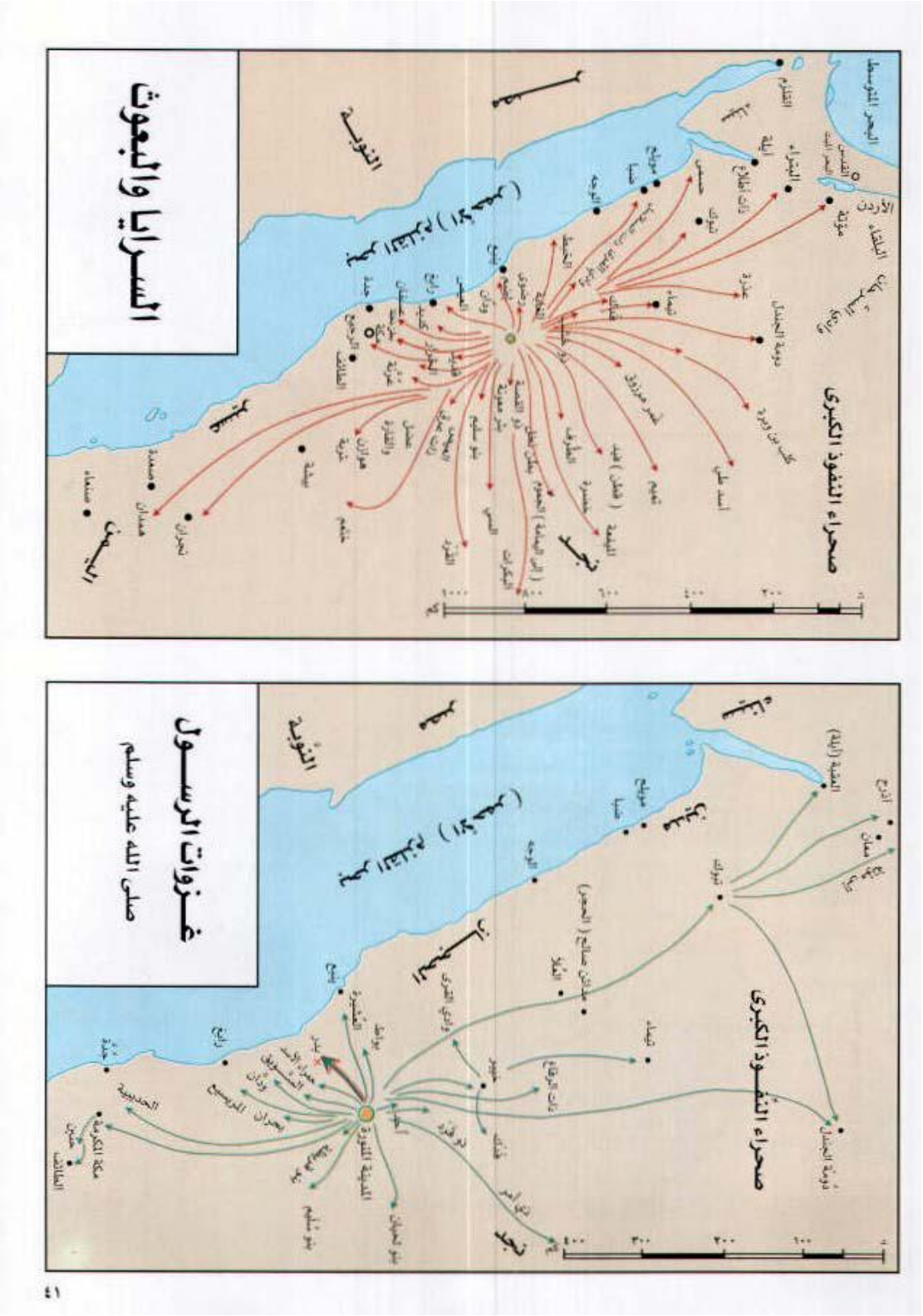

شوقي أبو خليل ، أطلس التاريخ العربي الإسلامي ، دار الفكر ، ط 12 دمشق 2005م

هوامش البحث

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 1/ 180 ، 182 ، 187 .

(٢) ينظر عن الهجرة إلى الحبشة : ابن اسحق ، السير والمغازي ، ص 213–223 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 98/1 – 99 ؛ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، 233/2 – 234 .

(٣) الحنفي ، الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان ، ص12 .

(٤) العلي ، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص334 .

(٥) ابن سعد ، الطبقات ، 102/1 .

(٦) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 1 / 491 ،

(٧) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص114–115 ؛ قدامة بن جعفر ، الخراج وصنعة الكتابة ، ص80 – 81 .

(٨) الواقدي ، المغازي ، 197/1 .

(٩) م . ن ، 198/1 .

(١٠) ينظر عن سرايا وغزوات المسلمين قبل بدر : الواقدي ، المغازي ، 9/1 . 19 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 252/2 – 253 .

(١١) فرق ياقوت بين ودان والأبواء وقال إن بينهما ستة أميال ، معجم البلدان ، 365/5 .

(١٢) ابن اسحق ، السير والمغازي ، ص65 ؛ الحميري ، الروض المعطار ، ص6 .

(١٣) ابن اسحق ، م . ن ، والصفحة .

(١٤) الميل يساوي 2 كم ، ينظر : هنتس ، المكاييل والأوزان ، ص95 .

(١٥) الواقدي ، المغازي 11/1 .

(١٦) م ، ن ، 12/1 ، والبريد يساوي 24كم ، ينظر : هنتس ، المكاييل والأوزان الإسلامية ، ص82 .

(١٧) الواقدي ، المغازي ، 12/1 .

(١٨) ابن سعد ، الطبقات ، 253/2 .

(١٩) ينظر الخارطة .

(٢٠) الواقدي ، المغازي ، 12/1–13 ؛ ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 598/2 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 253/2 .

(٢١) كرز بن جابر بن حُسيل القرشي الفهري أسلم بعد الهجرة وحسن إسلامه وقتل عند فتح المسلمين مكة ، ابن الأثير ، أسد الغابة ، 98/4 – 99 .

(٢٢) الواقدي ، المغازي ، 1/ 12

(٢٣) م . ن ، والصفحة .

(٢٤) ياقوت ، معجم البلدان ، 358/1 .

(٢٥) البريد يساوي 24 كم ، هنتس المكاييل والأوزان ، ص 82 .

(٢٦) طلحة بن عبيد الله بن عثمان القرشي التيمي من السابقين في الإسلام شهد المشاهد كلها مع النبي (ﷺ)عدا بدر قتل في معركة الجمل سنة 36هـ ، ابن الأثير ، أسد الغابة ، 469/2 – 472 .

(٢٧) سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل القرشي العدوي اسلم قديما وكان زوج فاطمة بنت الخطاب أخت عمر توفي سنة 50 هـ ، ابن الأثير ، أسد الغابة ، 2/ 284 – 286 .

(٢٨) الواقدي ، المغازي ، 19/1 .

(٢٩) الصفراء واد يبعد عن المدينة 90 كم ، البلادي ، المعالم الجغرافية الواردة في السيرة النبوية ، ص299 .

(٣٠) بسبس بن عمرو الجهني شهد بدرا وعداده في الأنصار ، ابن الأثير ، أسد الغابة ، 238-237/1 .

(٣١) عدي بن أبي الزغباء الجهني الأنصاري أرسله الرسول (ﷺ) في دورية استطلاع في غزوة بدر ثم شهد المشاهد كلها مع النبي (ﷺ) ، ابن الأثير ، أسد الغابة ، 337/3 .

(٣٢) الواقدي ، المغازي ، 40/1 ؛ ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق1/ 617 .

(٣٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 2 / 616

(٣٤) م . ن ، ق 2 / 617 .

(٣٥) الواقدي ، المغازي ، 51/1 ؛

(٣٦) الحباب بن المنذر بن الجموح الخزرجي الأنصاري كان يقال له ذو الرأي لمشورته النبي(ﷺ) في بدر وخيبر وشهد المشاهد كلها وتوفي في خلافة عمر ، ابن الأثير ، أسد العابة ، 1/ 459 ؛ جثير ، ذو الرأي الحباب بن المنذر ، مجلة مؤتة ، مجلد (13) عدد (7) سنة 1998م ، ص 149-186 .

(٣٧) الواقدي ، المغازي ، 53/1 .

(٣٨) جثير ، ذو الرأي الحباب بن المنذر ، مجلة مؤتة مجلد (13) عدد (7) سنة 1998م ، ص161 .

(٣٩) الواقدي ، المغازي ، 1/ 56 .

(٤٠) ينظر عن هذه الغزوات ، الواقدي ، المغازي ، 1/ 181 – 199 ؛ ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 2 /23 – 46 .

(٤١) ينظر عن اختلاف المسلمين أول الأمر : ابن اسحق ، السير والمغازي ، ص324 – 325 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 2/ 268–269 .

(٤٢) الواقدي ، المغازي ، 207/1 ؛ ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق65/2 .

(٤٣) أنس ومؤنس ابني فضالة بن عدي بن حرام الأنصاري أرسلهما الرسول (ﷺ)لاستطلاع جيش المشركين قبل معركة أحُد وقتل أنس بأحُد ، ابن الأثير ، أسد الغابة ، 175/1–176 ، 4/ 362 .

(٤٤) الواقدي ، المغازي ، 206/1–207

(٤٥) م . ن ، 207/1 .

(٤٦) عبد الله بن أبي بن أبي سلول رأس المنافقين في المدينة كان قد خذل المسلمين في أحد وتعاون مع اليهود ومات سنة 9هـ ، ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق2 / 64 ، 552 .

(٤٧) الصياصي من صيص وهو الحصن أو كل ما امتنع به ، الفراهيدي ، العين ، ص358 (مادة صيص) .

(٤٨) الواقدي ، المغازي ، 210/1 .

(٤٩) الملاح ، الوسيط في السيرة النبوية ، ص264 – 265 .

(٥٠) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 2 / 99 .

(٥١) الواقدي ، المغازي ، 1/ 224 .

(٥٢) م . ن ، 1/ 220 .

(٥٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 2 / 86 .

(٥٤) ابن هشام ، م . ن ، ق 2 / 93 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 271/2 .

(٥٥) الرسول القائد ، ص122 – 123 .

(٥٦) خليل ، دراسات في السيرة ، ص210 ؛ الملاح ، الوسيط في السيرة ، ص276 .

(٥٧) الطبقات ، 282/2 .

(٥٨) سلمان الفارسي مولى رسول الله (ﷺ) أصله من فارس وقصد المدينة فأسلم واشترك في فتوح العراق في خلافة عمر(رض) وتوفي سنة 35هـ ، ابن الأثير ، أسد الغابة ، 2/ 309 – 313 .

(٥٩) الواقدي ، المغازي ، 454/1 ؛ خليل ، دراسات في السيرة ، ص211 .

(٦٠) الواقدي ، المغازي ، 454/1 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 282/2 .

(٦١) المغازي ، 444/1 .

(٦٢) م . ن ، 490/1 .

(٦٣) سورة الأحزاب آية 9 .

(٦٤) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 2 / 254 .

(٦٥) ينظر عن الغزوات والسريا بين الخندق وصلح الحديبية : الواقدي ، المغازي ، 1/ 531 – 571 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 288/2 – 296 .

(٦٦) الواقدي ، المغازي ، 637/2 .

(٦٧) م . ن ، 639/2 .

(٦٨) م . ن ، 640/2 .

(٦٩) م . ن ، 643/2 .

(٧٠) جثير ، ذو الرأي الحباب بن المنذر ، مجلة مؤتة مجلد (13) عدد (7) سنة 1998هـ ، ص162 .

(٧١) الواقدي ، المغازي ، 644/2 .

(٧٢) ينظر عن سرايا الرسول (ﷺ) بين غزوة خيبر وفتح مكة : الواقدي ، المغازي ، 722/2 – 780 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 2/ 308 – 316 .

(٧٣) تربة قرية بالقرب من مكة على مسافة ميلين منها ، ياقوت ، معجم البلدان ، 21/2 .

(٧٤) مؤتة من قرى البلقاء في حدود الشام ، ياقوت ، معجم البلدان ، 220/5 .

(٧٥) ينظر عن إسلام هؤلاء النفر من قريش ، ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 2/ 276 – 278 .

(٧٦) ينظر عن نقض قريش اتفاق صلح الحديبية بمساعدة حليفتها بكر ضد حليفة المسلمين خزاعة : الواقدي ، المغازي ، 2/ 780 – 784 ؛ ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 2 / 389 – 395 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 2/ 316 – 317 .

(٧٧) الواقدي ، المغازي ، 825/2 ؛ ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 2 / 406 – 407 ؛ خطاب ، الرسول القائد ، ص230 .

(٧٨) مالك بن عوف بن سعد النصري زعيم مشركي هوازن في حُنين ، ولما انهزم المشركون لحق مالك بالطائف ثم جاء إلى الرسول(ﷺ) فأسلم وحسُن إسلامه وشهد فتح دمشق وكذلك معركة القادسية مع سعد بن أبي وقاص ، ابن الأثير ، أسد الغابة ، 169/5 – 170 .

(٧٩) الملاح ، الوسيط في السيرة ، ص308 .

(٨٠) ينظر عن انهزام المسلمين في حُنين وثبات النبي (ﷺ) وأصحابه : الواقدي ، المغازي ، 2/ 899 – 907 .

(٨١) ياقوت ، معجم البلدان ، 152/2 ، والمرحلة تساوي حوالي 40 كم ، القريبي ، مرويات غزوة بني المصطلق ، ص 55 .

(٨٢) ينظر عن غزوة تبوك ومصالحة الرسول(ﷺ) لسكان تلك المناطق : الواقدي ، المغازي ، 2/ 989 – 1060 ؛ ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 2 / 529 – 535 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 2/ 332 – 334 .

(٨٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ق 2 / 559 .

مصادر ومراجع البحث

. ابن الأثير ، عز الدين أبي الحسن علي بن محمد الجزري (ت 630هـ) أسد الغابة في معرفة الصحابة ، تحقيق الشيخ خالد طرطوسي ، ط 2 بيروت 2006م .

. ابن إسحق ، محمد بن اسحق بن يسار (ت151هـ) السير والمغازي ، تحقيق سهيل زكار ، دار الفكر ، ط 2 بيروت 1978م .

. البلادي ، عاتق بن غيث ، المعلم الجغرافية الواردة في السيرة النبوية ، مكة المكرمة 1982م .

. جثير ، د . علي غانم ، ذو الرأي الحُباب بن المنذر ، مجلة مؤتة ، مجلد (13) عدد (7) سنة 1998م .

. الحفني ، الشيخ أحمد ، الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان ، المطبعة الأميرية ، ط 1 مصر 1321هـ .

. الحميري ، محمد بن عبد المنعم (ت 711هـ) الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت 1980م .

. ابن خرداذبة ، أبو القاسم عبيد الله (ت في حدود 300 هـ) المسالك والممالك ، وضع مقدمته وحواشيه محمد مخزوم ، دار إحياء التراث العربي ، ط1 بيروت 1988م .

. خطاب ، محمود شيت ، الرسول القائد ، مكتبة النهضة ، ط2 بغداد 1960م .

. خليل ، عماد الدين ، دراسات في السيرة النبوية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

. ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع (ت 230هـ) الطبقات الكبرى ، اعد فهارسه رياض عبد الله عبد الهادي ، دار الفكر ، ط2 بيروت 1996م .

. الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310 هـ) تاريخ الرسل والملوك ، تقديم ومراجعة صدقي جميل العطار ، دار الفكر ، ط2 بيروت 2002م .

. العلي ، د . صالح أحمد ، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بغداد 1955م .

. الفراهيدي ، الخليل بن أحمد (ت 175 هـ) كتاب العين ، دار إحياء التراث العبي ، ط2 بيروت 2005م .

. قدامة بن جعفر (ت337 هـ) الخراج وصنعة الكتابة ، تحقيق محمد حسين الزبيدي ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد 1981م .

. الملاح ، د . هاشم يحيى ، الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة ، جامعة الموصل 1991م .

. ابن هشام ، محمد بن عبد الملك (ت 218هـ) السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ، ط2 مصر 1955م .

. هنتس ، فالتر ، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يقابلها في النظام المتري ، ترجمه عن الألمانية كامل العسلي ، عمّان 1970م .

. الواقدي ، محمد بن عمر (ت 207 هـ) كتاب المغازي ، تحقيق مارسدن جونس ، مطبعة أوكسفورد 1966م .

. ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي (ت 626هـ) معجم البلدان ، دار صادر ، ط3 ، بيروت 2007م .